

المنهج الدراسي في العصرين: الجاهلي وسدور الإسلام

الدكتورة راحيلة خالد القريشي * الدكتور عبد المجيد البغدادى **

إن التعليم له دور بارز في تطوير اجتماعي من النواحي المختلفة مثل الثقافة والسياسة والاقتصاد والاجتماع ولا بد لكل أمة تريد أن تنهض في حاضرها أن تربي أفرادها به - فإن الأمم التي تستضيء بنور العلم تفلح فيما تحاول، وتستغلب على الصعاب التي تعترض سبيلها - فنرى أن أول نداء إلهي يشتمل على فضيلة العلم، و أن القول الأول من أقوال الله تعالى الذي أشار إلى العلم وجعله السلاح على دفع الأمة وجعل العلم اللبنة الأولى في بناء المجتمع ^(١) وتوجد في القرآن الكريم الآيات الكثيرة التي تحث على حصول العلم والاشتغال به، وأقوال النبي ﷺ أيضاً تشير إلى عظمة العلم والعلماء ، ويظهر بهذه الأقوال أن الاشتغال بالعلم هو أفضل من نوافل العبادات البدنية من صلاة وصيام وتسبيح ودعاء ^(٢) فروى أن الرسول ﷺ مرّ بمجلس في مسجده فقال: كلاهما خير، أحدهما أفضل من صاحبه، أما هؤلاء فيدعون الله ويرغبون إليه فإن شاء أعطاهم وإن شاء منعهم وأما هؤلاء فيتعلمون الفقه والعلم ويعلمون الجاهل، فهم أفضل وإنما بعثت معلماً، قال ثم جلس فيهم ^(٣).

والعلم في الإسلام ليس خاصاً بعلم الشرائع والأحكام من حلال و حرام وإنما العلم في نظره هو كل ما يفيد الإنسان في قيام المهنة العظمى التي أقيمت على كاهله منذ خلقه وجعله الخليفة في الأرض - وإذا يأمر القرآن النبي ﷺ بالقراءة في الوحي الأول ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ يقرن ذلك باسم ربه ويختار لفظ الربّ دون بقية الألفاظ الدالة على الذات الإلهية من مثل "الله" و"الخالق" و"البارئ" ونحوها، قيل ^(٤) وفي هذا الاقتران اللفظي إشعار بأن القراءة التي أمر بها النبي "إنما هي للتربية والتعليم وليست للتعليم فحسب" ^(٥).

وإن للتعليم الإسلامي الطرق الخاصة التي تميز بها وسار على نهجها المعلمون وتطوّرت طرق التعليم بمرور العصور، وفي الحقيقة طرق التعليم ووسائله مرتبطة مباشرة بفضّل زيادة اهتمام الناس بالعلم والعلماء وكثرة طلاب العلم وتعدد وسائل التعليم والتعلّم - والتاريخ العربي يحدّثنا عن

* الأستاذة المشاركة، رئيسة قسم اللغة العربية، الجامعة الإسلامية، بهاولپور، باكستان.

** المحاضر بقسم اللغة العربية، جامعة العلامة إقبال المفتوحة، إسلام آباد، باكستان.

اشتغال العرب بالتعليم والتعلم منذ قديم ، وتوجد في المصادر الأدبية والتاريخية إشارات إلى المعلمين الذين اشتهروا في العصور القديمة ، وكانت لهم مكانة ممتازة في المجتمع ، قد ذكر ابن حبيب ^(٦) أشرف المعلمين ، منهم ؛ بشر بن عبد الملك السكوني أخو أكبر صاحب دومة الجندل ، وسفيان بن أمية بن عبد شمس ، وأبو قيس بن عبد مناف بن زهرة ، وغيلان بن سلمة بن معتب الثقفي وهو مخضرم ، وعمرو بن زرة بن عدى بن زيد (كان يسمى بالكاتب).

طرق التعليم

ويذكر بالروايات أنهم كانوا يعلمون أبناءهم وأن العارفين والمعلمين كانوا يتمتعون بمكانة ممتازة كما كان (للكتاب) مكانة مرموقة أيضاً ، ولكن طريقة التعليم كانت غير معروفة فيذهب الدكتور جواد على إلى قوله: "لم نثر على أى نص جاهلي فيه شيء عن التدريس وعن مواد الدراسة عند الجاهليين نستنبط منه مادة عن الدراسة عند عرب الجاهلية" ^(٧).

وفي المصادر القديمة بعض الروايات تخبرنا أن عدداً من الأدياء أو غيرهم كانوا يعلمون أبناءهم بطريقة خاصة وكذلك تعلموا الكتابة، فحاء الإسلام و في مكة سبعة عشر رجلاً يعرفون الكتابة منهم: عمر بن الخطاب، وعلى بن أبي طالب، وعثمان بن عفان، وطلحة، وزبير، وأبو عبيدة، و إبان بن سعيد، وخالد بن سعيد وغيرهم رضي الله عنهم و من النساء :الشفاء بنت عبد الله العدوية وعائشة بنت سعد التي روي عنها أنها تعلمت عن أبيها ^(٨) فكانت لمكة المكرمة أهمية خاصة عند العرب ؛ فكانت مركز التجارة، والتجارة تحتاج إلى الكتابة - فعرفت في العصر الجاهلي طريقة التعليم الخاص والطريقة المألوفة فإنها تتعلق بتعليم الكتابة - وكانت توجد عندهم أما كن للتعليم سميت (الكتاب) وقد جاء ذكر ذلك في "لسان العرب" في مادة "كتب" فقال ابن منظور: المكتب (بضم الميم وكسر التاء) موضع التعليم ، والمكتب المعلم، والكتاب، الصبيان - ومنه قيل : كتب الكتاب؛ لأنه يجمع حرفاً إلى حرف ^(٩).

وروي أن حماداً هو أول من كتب في بني أيوب وعلمته أمه الكتابة في بيت أبيه فطلب حتى صار كاتب الملك النعمان الأكبر وعلم ابنه زيداً ^(١٠) وذكر أن عبد الله بن جدعان علم حرب بن أمية ، وبشر بن عبد الملك علم أبا سفيان وكان تعلمه من مرمر بن مرارة وأسلم بن سدره ، ثم تعلمه عمر بن الخطاب و معاوية رضي الله عنهما وجماعة من قريش ^(١١).

فقد جاء في ترجمة "عدى بن زيد" أنه طرحه أبوه في الكتاب حتى إذا حذق أرسله المرزبان مع ابنه شهاان مرد إليه كتاب الفارسية ، فكان يختلف مع ابنه ويتعلم الكتابة والكلام بالفارسية ^(١٢) وروي عن خالد بن الوليد أنه مربيع النمر أثناء سفر من أسفاره و وجد في كنيسة صبيانا يتعلمون الكتابة في قرية من قرأها، يقال لها: النقيرة ، وفيهم حمران مولى عثمان بن عفان ^(١٣) استنبط العلماء هذه الروايات أن التعلم عندهم، هو أنهم كانوا يعلمون الحجازية أولاً، ثم

يتعلمون بعد ذلك كل شيء وورثوا هذه الطريقة من الأوائل - فأشار إليه أبو نواس في بيت من أبياته الشعرية فقال:

شادن يكتب في اللوح بتعليم هجاء كلما خط أبا جاد قراه فمحاه^(١٤)

وقد ذكر الدكتور "جواد على" الموارد النصراية (وخاصة نصارى العراق) عن التربية والتعليم في العصر الجاهلي، والمواد التي كانوا يعلمونها طلابهم في تلك المدارس يستنتج من خلالها: "بأن مدارس الأنبار والحيرة والقرى العربية الأخرى، لا بد أن تكون قد سارت وفقاً لمنهج أهل العراق في تعليم أبنائهم في ذلك الوقت"^(١٥). والمنهج التعليمي في تلك العصور القديمة يقوم على مبادئ القراءة والكتابة وإجادة الخط وشيء من الحساب والأمثال والحكم ومبادئ الدين وهي المواد الأساسية التي كانت تُعلم في الكتاتيب والمدارس^(١٦).

وكان طريقهم في تعليم الخط للأطفال هو أن يخط المعلم أو خليفته أو من يقوم مقامه من التلاميذ المتقدمين سطراً من الحكم والأمثال أو من الكتب السماوية لينقش سطوراً مثلها على لوح يحاول الإجابة جهداً إمكانيه في كتابتها لتقوية يده على الخط^(١٧)، أما الفرق بين المدرسين والعلماء الذين لم يتخذوا التدريس مهنة لهم فليس عندهم حد فاصل في ذلك فقال الدكتور جواد علي: "لم يكن في العصور الوسطى حد فاصل بين العلماء المدرسين والعلماء الذين لم يتخذوا التدريس مهنة لهم والجميع كانوا يعملون بأجر و تطوع لتثقيف الناس وتعليمهم أما عن طريق حلقات التعليم أو بتأليف الكتب"^(١٨). وقال: "أما تدريس اللغة العربية في الأنبار والحيرة التي درسها نصارى العراق فهو لم تتوقف على تدريس مفردات اللغة وقواعدها وأصولها ولا يعقل أن يكون المراد من العربي الكتابة والقراءة فقط بل لا بد أن يعلم معها شيء من أصول الكتابة من كيفية قطع القلم ورسم الحروف وأنواع الخطوط، ثم الأمثال والحكم وقواعد اللغة وآدابها وكان رجال الدين يسرون عليه ويتبعونه في مدارسهم"^(١٩).

وعرب الجاهلية عاشوا حياة خاضعة للخرافات والأوهام فإثهم كانوا يعبدون الأصنام واكلوا أمورهم إليها، وبالعوم كانوا مشغولين في الحروب بعضهم بعضاً وكانت الكهانة والعرافة معروفة عندهم، حتى ذهب بعض الباحثين إلى إنكار القراءة والكتابة في بلاد العرب وانتشارها ولكن بتطور الأحداث عند ظهور الإسلام، ثبت بأن الاستعداد لديهم كان متوافراً وهذا مما دعاهم إلى الإقبال الشديد على التعليم والتعلم وانتشار القراءة والكتابة بشكل واسع. دعا الإسلام إلى حصول العلم منذ أول عهده وحث على طلبه وبشر برفع من قدر العلماء وطلاب العلم و كانت الآية الأولى باعثة للمؤمنين على القراءة وطلب العلم كما كان هدف من أهداف النبي ﷺ العمل على نشر علم منذ أول تأسيس الدولة الإسلامية. وأنه فتح أبواب التعليم للعرب الأميين^(٢٠) وفي الحقيقة كانت حياة النبي ﷺ كلها دعوة إلى التعليم وتعلمه وتدوينه ونشره والانتفاع به. ولهذا رأينا أن عدد الكتاب الذي لم يكن يزيد على بضعة عشر نفراً، أصبح يزيد

بجهوده، أنه قرّر مجموعة من أسارى قريش في معركة بدر كانوا يعرفون القراءة والكتابة بأن يعلم كل منهم عشرة من أولاد المسلمين القراءة والكتابة نظير فداثة^(٢١). يلاحظ من هنا أن عملية التعليم والتعلم أصبحت مهمة واتخذت في ذلك العصر صفة جماعية ورسمية ومنها صفة خاصة وهي قيام الاسرى للتعليم. وكان النبي ﷺ يستخدم الذين يعرفون القراءة لكتابة الوحي، وأن النبي ﷺ اتخذ المسجد مركز الدرس والتدريس، ولا شك فيه أن للمسجد كان حلقة التعليم في الإسلام ومركز التوجيه الفكري والتربوي والأخلاقي والاجتماعي ومعهد العلم؛ فكانت تلقى فيها الدروس والمواعظ للرجال والنساء على السواء. ولم تكن المراكز العلمية في العالم الإسلامي طوال قرون عديدة سوى المساجد. ويبدو من الروايات أن التعليم كان مجانياً في عصر صدر الإسلام ولم يأخذ الصحابة رضي الله عنهم على التعليم أجراً من أحد من المتعلمين وقد كان عطاءهم السنوي هو الذي كانوا يأخذونه من بيت المال وكانت تشمل مجانية التعليم عندهم مجانية الكتاب أو مواد الدراسة، فيروى ابن قتيبة بسند عن عبدالله بن شقيق أنه قال: "كان أصحاب رسول الله ﷺ يكرهون بيع المصاحف ويرونه عظيماً وكانوا يكرهون أن يأخذ المعلم على تعلم العلم شيئاً"^(٢٢) وأن كراهتهم هذه مبعثها، هي النبي ﷺ عن أخذ الأجر على التعليم من جهة وخوفهم من جهة أخرى من ذهاب الثواب الذي يناله المعلم - وقرّر النبي ﷺ الكتابة واجباً لعملية التعليم وحث المسلمين على تعلمها، فقال: "قِيلُوا العلم بالكتاب"^(٢٣). وسار أصحاب النبي ﷺ على نهجه العلمي القديم بعده فنعوا بتدوين العلم؛ روى أن عثمان بن عفان رضي الله عنه قال: "قِيلُوا العلم" فسأله من سمعه: وما تقيده؟ فقال: تعلموه وعلموه واستنسخوه، فإنه يوشك أن يذهب العلماء ويبقى القراء لا تجاوز قراءة أحدهم تراقيه^(٢٤). وكذلك حث الرسول ﷺ على قراءة القرآن الكريم وفي الحقيقة كان لقراءته أثراً بالغاً في التحفيز على تعليم القراءة والكتابة في صدر الإسلام وفي بقية العصور بعده. كما كانت الحاجة إلى كتابة القرآن (ونسخه بنسخ كافية تفيد عدداً كبيراً من المسلمين) وسيلة من وسائل تحفيز على محو الأمية وسبباً من أسباب انتشار العلم. فكانت الصحابة الكرام رضي الله عنهم يعنون بتحسين الخط وتطويره^(٢٥)، وكان على بن أبي طالب يؤكد لكاظمه عبيد الله بن أبي رافع بوضوح الخط وجماله وتنظيمه فيقول: ألق دواتك وأطل جلفه قلمك، وفرج بين السطور، وقرمط بين الحروف، فإن ذلك أجدر بصباحة الخط^(٢٦)، فقله يدل على أهمية علم بأصول الخط ورسم الحروف. أما أسلوب النبي ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم في تعليم الصبيان فهو أسلوب بعيد عن الملل؛ فكانوا يتركون الصبي في بداية عمره قليلاً للعب حتى تتوفر همته على القراءة ويشبع حاجته منه قبل أن يتلقى العلم^(٢٧). ورأى النبي ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم أن يكون سنّ الطفل مناسباً للمعلومات التي سيتعلمها، فذهب عمر من تعليم القرآن خمس آيات^(٢٨).

ولم تكن طريقة التعليم خالية من الملل فحسب في صدر الإسلام بل كانت بعيدة عن القسوة والعنف أيضاً أما أسلوب النبي ﷺ وأصحابه في تعليم الصبيان فهو أسلوب بعيد عن الملل - وكان النبي ﷺ يرى العنف منافياً للتعليم ومضاداً له فقال:

"عَلِّمُوا وَلَا تَعْنُوا ، فَإِنَّ الْمَعْلَمَ خَيْرٌ مِنَ الْمُعْتَفِ" (٣٩).

وقال يوصي المعلم: "عليك بالرفق ، فَإِنَّ الرَّفْقَ لَا يَكُونُ فِي شَيْءٍ إِلَّا زَانَهُ ... " (٣٠). وكان النبي ﷺ (وهو المعلم الأول) يقول: "إِنَّ اللَّهَ لَمْ يَعْثِنِي مُعْتَباً وَلَا مُتَعْتَباً ، وَلَكِنْ بَعَثَنِي مُعَلِّماً مُبْسِراً" (٣١).

إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ رَسَمَ لِلْمُعَلِّمِينَ أَسَالِيبَ التَّعْلِيمِ وَطَرَقَهُ مِنْ نَاحِيَةٍ وَبَيَّنَّ الْأَدَابَ الَّتِي يَلْتَزِمُ بِهَا الْمُتَعَلِّمُ فِي مَجَالِسِ الدَّرْسِ مِنْ نَاحِيَةٍ أُخْرَى. فَاتَّبَعَ الْمُسْلِمُونَ هَذَا الْمَنْهَجَ بَعْدَهُ، يَقُولُ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ مَخَاطَباً بَعْضَ تَلَامِيذِهِ: "مَنْ حَقَّ الْعَالَمُ عَلَيْكَ إِذَا أَتَيْتَهُ، أَنْ تَسْلَمَ عَلَى الْقَوْمِ عَامَّةً وَتَخْصَّهَ بِالتَّحِيَّةِ وَأَنْ تَجْلِسَ قَدَامَهُ وَلَا تُشِيرَ بِيَدِكَ وَلَا تَغْمِزَ بَعَيْنِكَ وَلَا تَقُولَ: قَالَ فُلَانٌ، خِلَافاً لِقَوْلِهِ وَلَا تَغْتَابَ عِنْدَهُ أَحَدًا، وَلَا تَسَارَ فِي مَجْلِسِهِ وَلَا تَأْخُذَ بِثَوْبِهِ وَلَا تَلَحَّ عَلَيْهِ إِذَا كَسَلَ وَلَا تَغْرُصَ (لَا تَضْجِرُ) مِنْ صَحْبَتِهِ لَكَ فَائِمًا هُوَ بِمَنْزِلَةِ النَّخْلَةِ، لَا يُزَالُ يَسْقُطُ عَلَيْكَ مِنْهَا شَيْءٌ" (٣٢). والجدير بالذكر أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ اِهْتَمَّ بِتَعْلِيمِ الْمَرْأَةِ وَأَكَّدَ أَنَّ تَتَرَبُّعَ الْمُسْلِمَاتِ بِحِلْيَةِ الْعِلْمِ (وَأَنَّ تَعْلِيمَ الْمَرْأَةِ ضَرُورِيٌّ وَاجْتِمَاعِيٌّ يَتَقَاضِي لِتِلْكَ الضَّرُورَةِ لِأَنَّ الْمَرْأَةَ نِصْفُ الْجَمْعِ). فَكَانَ يُرِيدُ أَنْ تَتَعَلَّمَ الْمُسْلِمَاتُ الْقِرَاءَةَ وَالكِتَابَةَ وَأَنْ يَتَعَلَّمْنَ الْأَحْكَامَ الشَّرْعِيَّةَ وَالْمَعَانِيَ الْأَخْلَاقِيَّةَ؛ فَعَهَدَ إِلَى بَعْضِ النِّسَاءِ بِتَعْلِيمِ الْأُمِّيَّاتِ مِنْ أَهْلِهِ وَأَسْرَتِهِ الْكِتَابَةَ وَالْقِرَاءَةَ مِنْ خَيْرَةِ النِّسَاءِ الْمُسْلِمَاتِ كَمَا ذَكَرْنَا، هِيَ الشَّفَاءُ بِنْتُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبْدِ شَمْسٍ لَتَعَلَّمَ السَّيِّدَةَ حَفْصَةَ الْكِتَابَةَ (٣٣) وَجَعَلَ الرَّجُلُ أَنْ يَتَوَلَّى تَعْلِيمَ مَنْ مَعَهُ فِي الدَّارِ مِنْ فَتَاةٍ وَأَنْ يَتَوَلَّى تَعْلِيمَهَا وَتَرْبِيَّتَهَا لِيَجْعَلَهَا عَضْوًا نَافِعًا لِلْأُسْرَةِ وَاجْتِمَاعِ.

وَمِنَ الرِّوَايَاتِ الَّتِي تَدُلُّ عَلَى اِهْتِمَامِ الرَّسُولِ ﷺ بِتَعْلِيمِ الْمَرْأَةِ: فَقَدْ وَرَدَ عَنْهُ مَا يُشِيرُ إِلَى أَنَّ تَعْلِيمَ الْمَرْأَةِ الْقُرْآنَ قَدْ يَكُونُ بَدَلًا مِنْ مَهْرِهَا لِمَنْ عَدِمَ الْمَالُ (٣٤) وَخَصَّ النَّبِيُّ ﷺ لَهُمْ أَوْقَاتَ مَعِينَةٍ جَعَلَهَا فُرْصَةً لِتَعْلِيمِهِنَّ، بَعْدَ أَنْ تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُنَّ لَا يَسْتَطِيعْنَ أَنْ يَسْمَعْنَ كَلَامَهُ وَدَرَسَهُ وَهُنَّ بَعِيدَاتُ عَنْهُ بِالْجُلُوسِ بَعْدَ صَفُوفِ الرِّجَالِ (٣٥) وَأَعْطَاهُنَّ فُرْصَةً طَيِّبَةً لِلْحَضُورِ فِي الْمَجَالِسِ الْعِلْمِيَّةِ - فَالْتَّبِيُّ ﷺ بَيَّنَّ لَنَا طَرِيقَ التَّعْلِيمِ وَأَسَالِيِبَهُ لِتَعْلِيمِ الصَّبِيَّانِ وَالْفَتَيَانِ وَالنِّسَاءِ عَلَى السَّوَاءِ، وَجَعَلَ الْإِشْتَغَالَ بِالْعِلْمِ فَرِيضَةً لِكُلِّ مُسْلِمَةٍ كَمَا قَرَّرَهُ فَرِيضَةً لِكُلِّ مُسْلِمٍ وَأَرْفَعَ قَدْرَ الْمَعْلَمِ وَالْمُتَعَلِّمِ. وَالصَّحَابَةُ الْكِرَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَالْمُسْلِمُونَ بَعْدَهُمْ تَبِعُوا هُجْرَهُ فِي الدَّرْسِ وَالتَّدْرِيسِ. وَكَمَا قُلْنَا إِنَّ الْمَسَاجِدَ كَانَتْ مَرَاكِزَ الْعِلْمِ فِي الْعَالَمِ الْإِسْلَامِيِّ فِي صَدْرِ الْإِسْلَامِ وَبَعْدَهُ لَمَدَةُ طَوِيلَةٍ، فَاصْبَحَ التَّرَاثُ الْإِسْلَامِيُّ مُرْتَبِطًا بِهَا، نَشَأَتْ فِيهَا الْعُلُومُ الْمُخْتَلِفَةُ وَقَامَتِ الْمَحَاوِرَاتُ وَالْمُنَظَرَاتُ.

وَكَانَتْ طَرِيقَةُ التَّدْرِيسِ فِي الْمَسَاجِدِ فِي الْقُرُونِ الْمَاضِيَةِ هِيَ أَنَّ الشَّيْخَ أَوْ الْأُسْتَاذَ كَانَ يَجْلِسُ إِلَى أَحَدِ أَعْمَدَةِ الْمَسْجِدِ مُسْتَدًّا إِلَيْهِ وَمُتَّجِهًا إِلَى الْقِبْلَةِ (٣٦) وَكَانَ الشَّيْخُ يَجْلِسُ عَلَى خَشْبَةٍ

صغيرة أو على منصة (وكانت تعرف هذه بـ (السدة) متكئاً على العمود أو على الحائط والمستمعون كانوا يجلسون بحسب ترتيب معين، لكل طبقة مكان معين في هذه الحلقة ويكون الأستاذ في أبرز نقطة في محيطها، وكان يترك في الحلقة فراغ ليجلس فيه من يحب أن يستمع إلى الدرس من الداخلين^(٣٧) وكان الشيخ أو المعلم يفتح الدرس بالبسملة والحمد لله وبالصلاة والتسليم على الرسول ﷺ ليحث الطلاب على طلب العلم والمعرفة^(٣٨)، ثم يملأ ما عنده من المادة العلمية ويستخدم في املاء مساعداً يسمى "حلياً" يردد وراءه ما يقوله حتى يبلغ السامعين صحيحاً سليماً من شوائب الخطأ والتحريف - ولما انتهى الدرس كان يقرأ الفاتحة ويعين الموضوع للدرس المقبل^(٣٩).

أما موضوعات الدرس التي يعلمها المدرّس، فكان يعظ الناس بالعموم بما يعرف وما دام لا يتقاضى من الدولة أجراً على عمله، فقد ترك له أن يدرس ما شاء في الوقت الذي يشاء^(٤٠). ذكر الجاحظ في "البيان والتبيين" أن جعفر بن الحسن أول من اتخذ حلقة في مسجد البصرة لقراءة القرآن الكريم^(٤١). وكذلك كان حلقة الحسن البصري فيها قامت المناقشات حول كثير من المسائل الدينية الكثيرة بين واصل بن العطاء رئيس المعتزلة وبين غيره من الفقهاء في نفس المسجد. ونشطت زوايا الدرس وحلقات العلم في المسجد الأموي بدمشق وكان للخطيب البغدادي حلقة كبيرة يجتمع فيها الناس بكثرة كل يوم فيقرأ لهم، وكان اذا قرأ الحديث سُمع صوته في آخر الجامع^(٤٢). ذكر ابن جبير يصف الحلقات التي انعقدت في الجامع الأموي بدمشق^(٤٣): "ظَلَّت حلقات الدروس في ازدياد يتزعمها أئمة الفقهاء والقراء وأهل الأدب والحكمة، يجتمع فيها الآلاف من الطلاب والقراء والكتاب، فمنها ظهر العلماء والأدباء والشعراء والكتاب مثقفين بالثقافة العربية ومشاركين في المناصب العليا في الدولة ودواوين الحكومة"^(٤٤).

والجدير بالذكر أنها كانت الرواية هي النظام الأساسي قام عليها التعليم الإسلامي، إن العرب اهتموا بالرواية وفي الحقيقة ذلك يرجع إلى طبيعة العقل العربي فعندهم قدرة فائقة على الحفظ و كانوا يحفظون آلافاً من الأبيات والأراجيز والأمثال (الحكم) والأحاديث ويروون كل ذلك، فأصبحت الرواية وسيلة من وسائل نشر الثقافة. ونرى أنه كان لكل شاعر في العصر الجاهلي رواية يحفظ شعره ويروى عنه، وكثيراً ما يكون الراوي نفسه شاعراً^(٤٥).

وبعد أن جاء الإسلام أصبحت الرواية مادة صالحة لحفظ ورواية الأحاديث النبوية، وكان الاعتماد يقوم على الرواية فيما سمعه أصحاب النبي ﷺ من أحكام وإرشادات أو غيرها ثم شاعت الرواية في العلوم الإسلامية الأخرى من الفقه وعلم الكلام وغيرهما وأصبح الإسناد من لوازمها^(٤٦) وكان السماع والحفظ في (العصر الجاهلي) معروفاً شائعاً وأساس الرواية لعدم انتشار الكتابة والقراءة قيل: "ومادامت الرواية موقوفة في صدر الإسلام (القرن الأول) عليهما، ورغم انتشار الكتابة فيما بعد ظل السماع وسيلة قائمة من وسائل أخذ العلم - فكانت المؤلفات العلمية تروى عن صاحبها بالسماع منه وكان العرب يفاخرون بكثرة الحفظ وسرعته، فيقال في كتاب

التراجم والأخبار: فلان يحفظ كذا من الشعر وكذا من الأمثال فيقال في كتب التراجم والأخبار: فلان يحفظ كذا من الشعر وكذا من الأمثال وفلان أحفظ أنساب العرب وغيرها^(٤٧)، وتوجد في المخطوطات العربية كثيراً من عبارات السماع مثل: سماع الحافظ أبي الفضل محمد بن ناصر إسلامي المكتوب بخطه وكان من عادة من يسمع شيئاً عن أستاذه دون مسمعه مسجلاً اسم أستاذه واسمه وتاريخ ذلك ويسمى "سماعاً"^(٤٨) ولأنه كان تعليم الهجاء والخط أساس العملية التعليمية ومن أبرز الطرق التي اعتاد عليها معظم المسلمين والشيوخ في حلقاتهم ومدارسهم فكان على الطلبة تدوين ما يُتلى عليهم ومذاكرته في ما بعد خاصة إذا كان المدرس يلقي من محفوظات^(٤٩).

وشاعت طريقة الإملاء وكان في شيوعها حظ انتشار الكتابة وأدواتها مثل القلم، والورق، والحبر وغيرها، وتحول طريقة التعلم من السماع والحفظ إلى الإملاء تشير إلى مرحلة التطور في طرق التعليم. والفرق بينهما أن في طريقة السماع لا يهتم الطالب الشيخ بكتابة ما يقوله الشيخ أو المعلم في ذلك الموضوع فأنه يتحدث والتلميذ يسمع. أما في الإملاء فكان الدرس يُلقى بطيئاً فقرة فقرة أو حديثاً مع اتصال السند. روى "بعد انتهاء إملاء الحديث أو فقرة مستقلة كان الأستاذ يشرح ما غمض من الأمالي فإذا اكتملت أمالي الشيخ في ذلك الموضوع فأنه ربما قرأ الأمالي أو قرئت عليه لتصحيحها وكانت مجموعة المحاضرات التي تُلقى بطريقة الإملاء تُسمى "الأمالي" ومنها تكونت المخطوطات التي طبع الكثير منها فأصبحت كتباً شهيرة^(٥٠) (وما يزال المخطوط منها حتى الآن) ومن المخطوطات المطبوعة "الأمالي" لأبي علي القالي التي أملاها في جامع الزهراء بقرطبة^(٥١).

وكانت القراءة أيضاً طريقة من طرق التعليم القديمة ووسيلة من وسائل الدرس والتدريس. وفي هذه الطريقة كان الدرس يُلقى من كتاب يمكن الحصول عليه. "وروى أن هذه الطريقة كانت هي أن يقوم أحد من الطلبة ويقرأ الكتاب يختاره الأستاذ وحده أو مع أحد من زملائه، كان يقوم الأستاذ بعد ذلك يشرح الغوامض من الفقرات أو الكلمات والجمل ويعطي فكرة عامة من موضوع الدرس، ثم يبدأ قراءته من حين آخر بالتعليق على الفقرات وممارستها مع غيرها. قيل: أنها كانت هذه الطريقة نتيجة لقلّة الاجتهاد وضعف حركة الابتكار فأخذت تحل محل الإملاء بالتدريج وأخذ الإملاء يختفي شيئاً فشيئاً من التعليم الإسلامي في القرن الرابع الهجري^(٥٢)، (٥٣).

والأهم في هذه الطريقة هو اختيار الكتب الموزونة؛ فقال أحمد شلبي: "ومن نتائج هذه الطريقة "تقرير" كتب معينة على الطلاب يدرسونها بمعونة الأستاذ"^(٥٤). وظلت طرق أخرى معروفة متداولة في تاريخ التعليم الإسلامي كانت منها السؤال والمناقشة والمذاكرة وأخيراً الرحلات في طلب العلم، وهذه الوسائل مرتبطة ارتباطاً مباشراً بعملية التدريس، إن السؤال والمناقشة لها أهمية خاصة لاستكمال عملية التعليم وإعانة الطالب على الفهم ولذلك نرى أن هذه

الطريقة إحدى الطرق الرئيسية التي تستخدم في تدريس العلوم حتى في عصرنا الحاضر، قيل: وتبرز أهمية هذه الوسيلة من خلال إشراك الطلبة في مناقشة ما يتعلمونه، كما عُدَّ الحياء في السؤال من آفات العلم^(٥٥). وكانت للمناقشة والسؤال بين الطلاب وأستاذهم آداباً خاصة. وقد أشار القرطبي في فصل من أبواب آداب العالم والمتعلم إلى أهمية المناظرة، ورؤى عن الخليل بن أحمد الفراهيدي أنه قال: "اجعل تعليمك دراسة لك واجعل مناظرة العلم تنبيهاً بما ليس عندك"^(٥٦).

ولا شك فيه أن الطلبة يكونون أكثر استمتاعاً في الدرس نتيجة المشاركة في المناقشة فإن هذه الطريقة تعطي فرصاً للتفكير بعمق ويقدرّون بها على التحليل والاستدلال والاستنتاج، وتساعد هذه الطريقة في الوقت نفسه المدرّس على معرفة مدى فهم الطلاب لما درسوه من مواد فأنه كان لكل طالب حق في أن يسأل لاستيضاح ما صعب فهمه.

والأسلوب في تنظيم المناقشة هو أن تدوّن الأسئلة في رقاع وتقدّم إلى المحاضر ثم يبدأ بالإجابة عما ورد فيه. وهذا هو ما يتّبع في جامعاتنا أعقاب المحاضرات والتدوات العامة وتبرز به حرية الفكر وديمقراطية التعليم الإسلامي وهذا الأسلوب يشير إلى اتساع أفق التعليم والثقافة في المسلمين بالعموم والأدب بالخصوص.

ومنها "المناظرة" التي أعانت على بثّ الروح العلميّة في معناها الحقيقي وكانت المناظرات بالعموم تُعتقد بين الأساتذة والعلماء، وكان لها فضل كبير في توسيع أفق التفكير وتنمية العقول. وهذه الطريقة من أقدم وسائل العلم عند المسلمين وفي القرن الثاني الهجري اعتمد عليه أئمة المذاهب والفقهاء لاستنباط حقائق الفقه واستخراج أصوله. فنرى التاريخ حافلاً بذكر عدد كثير من المناظرات التي وقعت بين المعتزلة وأهل السنّة وأصحاب الأديان الأخرى؛ فظلت المناظرة عاملاً قوياً من عوامل النشاط الفكري الإسلامي^(٥٧).

نتائج البحث

فهذه هي الطرق التي تشير إليها الروايات التاريخية، ويبدوها أن هذه الطرق ظلّت شائعة معروفة في عصور قديمة وبعدها، وأنها متداولة حتى عصرنا الحاضر مثل القراءة والحفظ و المناقشة. وطريقة المناقشة هي أهمّ وأنفع من جميع الطرق في الجامعات والمعاهد العلميّة الأخرى. أمّا القراءة والإملاء والحفظ فأنّها كانت معروفة في المدارس الابتدائية والثانوية وغيرهما، ولها أهمية خاصّة في النشاط العلمي^(٥٨). وكانت مراحل التعليم في العصر القديم في الدول المتقدمة تُقسم إلى أربعة: التعليم الابتدائي، والثانوي، والجامعي، والدراسات العليا^(٥٩). وكان الطلاب يُقسمون حسب مقدارهم للتحصيل العلمي إلى طبقات ثلاثة: المتدئين، والمتوسطين، والعليا^(٦٠). وفي هذا التقسيم للمراحل الثلاث دلالة واضحة على صحة وسمو المناهج التربوية الإسلامية. ولم يكن التقسيم حسب سني عمر الطلبة بل كان ذلك بحسب مقدرتهم وكفائتهم العلميّة؛ فيضعون

الطالب فى المرحلة أو الطبقة التى يستحقها. ونرى أن هذه الطرق والمراحل متداولة معروفة فى عصرنا الحاضر ولا يحدد أحد بأهميتها فى تعليم الطلاب وتربيتهم؛ فإنها أقيمت على أسس متينة من أصحاب ذوى خبرة واسعة فى تعليم الأطفال و ذوى علم راسخ للفنون والآداب المختلفة وأصحاب نظر عميق فى نفسية البنين و البنات فى تلك العصور و لا بدّ لنا أن نبذل أقصى جهودنا لتعليم أطفالنا و شبّاننا مستفيدين من تجارب أسلافنا العظماء. ولا يجوز لنا تركها أو رفضها قائلين بأنها طرق قديمة، بل تلك الأساليب القيمة هى فى الحقيقة أسس متينة للأساليب الجديدة فى تعليم الطلاب وتربيتهم فى مراحل التعليم المختلفة من المدارس الابتدائية إلى المدارس العليا والكليات والجامعات والمدارس الخاصة الأخرى. ولا بدّ لنا اتباعها رغم أن نسميها بتسميات مكروهة و أن نفقد هدفنا الصحيح فى هذا المجال. ولا بدّ من التطور و الرقى فى تلك الطرق حسب مقتضيات العصور الحديثة و علينا أن نعمل لها- والله المستعان و بالله التوفيق.

الهوامش

- ١- لقد كانت السورة الأولى التي نزلت على النبي ﷺ الأمي تحت على القراءة والكتابة فقال: ﴿إِقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (١) خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ (٢) اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ (٣) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (٤) عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ (العلق ١-٥)، وفيه تعريف وتعظيم لكل من علم أو تعلم أو أمسك القلم مدى العصور- المكتبات في الإسلام، محمد ماهر حماده، الطبعة الأولى، بيروت، ١٩٧٠م، ص: ٢٧.
- ٢- فقال الله عز وجل: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (الزمر: ١٠)، ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ﴾ (آل عمران: ١٨)، ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا﴾ (آل عمران: ٧).
- ٣- الدارمي، مسند الدارمي، دارالمغني للنشر والتوزيع، ٣٦٦/١.
- ٤- الغزالي، فاتحة العلوم، القاهرة ١٣٠٩هـ، ص: ١٩.
- ٥- سيد قطب، التصوير الفني في القرآن، دار المعارف مصر: ١٩٦٣، ص: ١٩.
- ٦- أبو جعفر محمد بن حبيب اوس الطائى، كتاب المحرر، بيروت، ص: ٤٧٥.
- ٧- جواد على (الدكتور)، الفصل في أحوال العرب قبل الاسلام، ط: ١، بيروت ١٩٧١م، ٢٩٨/٨. (ان يرى أن التدريس والدراسة كان معروفا في العصر الجاهلي وكانت كلمة الكتاب تستعمل للمدرسة التي يتعلم فيها الأطفال القراءة والكتابة ومبادئ المعرفة).
- ٨- ابن عبد ربه، العقد الفريد، دار المعارف، مصر، ١٤٨/٤.
- ٩- ابن منظور، لسان العرب: (كتب)، قم، ايران ١٤٠٥ هـ - ١٣٦٣، ٢/٦٩٨، ٦٩٩.
- ١٠- أبو الفرج الأصفهاني، الأغاني، تحقيق: محمد أبو الفضل ابراهيم، مصر ١٣٩٠ هـ - ١٩٥٨ م، ٩٨/٢.
- ١١- القلقشندي، صبح الأعشى، نسخة مصورة عن الطبعة الأميرية، مصر، ١٠/٣.
- ١٢- الأغاني: ٩٩/٣.
- ١٣- الحموي، ياقوت، معجم البلدان، ٣٠١/٥، وفي رواية الطبري وُجد في حصن عين النمر أربعين غلاما يتعلمون الانجيل (٣/٣٧٧، دار المعارف، مصر)
- ١٤- أبو نواس، الديوان، ت: عبد المجيد الغزالي، بيروت ١٩٥٣ م، ص: ٣٣١.
- ١٥- الفصل: ٢٩٧/٨ - ٢٩٨، قيل: "وقد كان للمسيحية أثر كبير في التربية والتعليم ودور بارز وفعال فيهما وكانت طريقة التدريس تعتمد بالدرجة الأولى على الذاكرة والمواد التي كانت تعطى كلها نقلية وكانت تحمل ذاكرة الطلاب بحمل لا يطيقه أكثرهم وكان أسلوب الكنيسة

- العقاب؛ فكانوا يعاقبون الأطفال بالحرمان والحبس والعقاب البدني لاعتاد الطاعة المطلقة في نفوسهم. (جابر عمر، المدخل في التربية، ط: ٢، بغداد ١٩٥٤، ص ٢٩).
- ١٦- نفس المصدر، ص: ٢٩٨.
- ١٧- نفس المصدر.
- ١٨- نفس المصدر.
- ١٩- قيل: إن للأمية مفهومين: الأمية الأبجدية والأمية الحضارية: الأمية الحضارية تتعلق بقدرة على الفهم والإدراك. (لينظر التفصيل في "دائرة المعارف الإسلامية" مادة (أُمِّي) ٢/٢٦٥).
- ٢٠- وهم لا يستطيعون أن يدفعوا الفدية فرخص لهم بهذه الطريقة، صبح الأعشى: القاهرة، ١٩١٧، ١٥/٣. وقيل: كان زيد بن ثابت ممن علم. (ابن سعد، كتاب الطبقات الكبيرة، طبعة ليدن (٥١٣٢٥)).
- ٢١- ابن قتيبة، عيون الأخبار، دار الكتب المصرية، القاهرة ١٣٨٣هـ - ١٩٦٣م، ١/١٣١.
- ٢٢- مقال الدكتور كاسد ياسر الزيدى: "محفزات محو الأمية في عصر صدر الإسلام" مجلة آداب الرافدين، ص: ١٣١.
- ٢٣- الدينوري، أبو عبدالله محمد بن عليم الحكيم، الأمثال من الكتاب والسنة، ت: على محمد الجباوى، دار النهضة، مصر، القاهرة، ١٩٧٥، ص: ٣١.
- ٢٤- وكان لحسن الخط أثر بالغ في إيصال العلم إلى المتعلم ببشر وتشويق، وأنه يؤدي دورا مهما في النشاط العملي والتعليمي.
- ٢٥- محمد عبده، شرح نهج البلاغة - ت: محي الدين عبد الحميد، مطبعة الاستقامة - القاهرة (بلون سنة)
- ٢٦- ابن كثير، عماد الدين اسماعيل، فضائل القرآن - دار الأندلس للطباعة والنشر بيروت ١٣٨٥هـ - ١٩٦٦م، (قيل: هذا المنهج التربوي هو ما تؤديه اليوم "رياض الأطفال" إذ يرسل إليها الصغار لإشباع هذه الحاجة شيئا من التعليم والتربية لهذه السنين المبكرة) مقال الدكتور كاسد ياسر الزيدى؛ محفزات الأمية في صدر الإسلام، آداب الرافدين جامعة الموصل.
- ٢٧- روى: "تعلموا القرآن خمس آيات فإن النبي ﷺ كان أأخذ من جبريل خمس آيات" (الأشياء والنظائر في القرآن؛ لمقاتل بن سليمان - ت: د - عبدالله محمد شحاتة - القاهرة ١٣٩٥هـ - ١٩٧٥م، ص: ٢٧٣).
- ٢٨- السيوطي، العلامة جلال الدين، الجامع الصغير في أحاديث البشير والنذير، المكتبة الموسسة؛ ١٣٩٤هـ، ص: ٦٢.
- ٢٩- الإمام البخاري، الأدب المفرد، باب الخرق، شرح فضل الله الجيلاني - مطبعة سلفية - القاهرة ١٣٧٨هـ، ١/٥٦١.

- ٣٠- مسلم بن الحجاج، صحيح مسلم، مطبعة محمد علي صبيح ، القاهرة، ١٨٨/٤. (فيقول أحد أصحابه: ما رأيت معلماً قبله ولا بعده أحسن تعليماً منه ، فوالله ما قهرني ولا ضربني ولا شتمني...) (صحيح مسلم، باب تحريم الكلام عند الصلاة، ٧٠/٢).
- ٣١- ابن قتيبة ، عيون الأخبار، دار الكتب المؤسسة المصرية العامة ، القاهرة ، ١٣٨٣ هـ - ١٩٦٣ م ، ١١٩/١-١٢٠.
- ٣٢- ابن عبد البر، أبو عمر يوسف بن عبد الله، الاستيعاب في معرفة الأصحاب - تحقيق: علي محمد الجاوي - مطبعة نخضة ، مصر - القاهرة (بدون سنة).
- ٣٣- ابن كثير، فضائل القرآن ، ص: ٦٥.
- ٣٤- البخاري، صحيح البخاري بشرح ابن حجر "فتح الباري"، بيروت دار المعرفة، ٢٠٣/١.
- ٣٥- وكان بعض الشيوخ يختصون بعمود معين يجلس إليه طيلة حياته حتى يعرف العمود باسمه. (سيد مرسى أحمد، تطوّر الفكر التربوي ، ط : ٣، القاهرة : ١٩٧٥ م، ص: ٢١٤).
- ٣٦- أحمد شلبي، تاريخ التربية الإسلامية ص: ٣٦٨. وتطور الفكر التربوي ص : ٢١٥ و محمد عبدالرحيم غنيمه ، تاريخ الجامعات الإسلامية الكيزي، المغرب ١٩٥٣ م، ص: ١٨٢.
- ٣٧- وخاصة إذا كان الدرس في علوم الحديث.
- ٣٨- تاريخ التربية الإسلامية ص: ٣٦٨ وتطور الفكر التربوي ص: ٢١٥.
- ٣٩- تاريخ التربية الإسلامية ص : ١٩٣-١٩٤.
- ٤٠- الجاحظ، عمرو بن بحر عثمان، البيان والتبيين: ت: عبدالسلام هارون، الطبعة الثانية، القاهرة، ٣٦٧/١.
- ٤١- ياقوت الحموي، معجم الأدياء، ت: مرجليوث، مصر ١٩٢٣ م، ٢٤٣/١-٢٤٤.
- ٤٢- ابن جبير، رحلة ابن جبير، بيروت ، ١٩٦٤ م، ص: ٢٤٤ و ما بعد.
- ٤٣- ياسين خليل، التراث العلمي العربي، بغداد ١٩٧٨ م، ٧٤/١.
- ٤٤- عبد الحميد الشلقاني، رواية اللغة (الرواية الأدبية في الجاهلية)، دار المعارف مصر ١٩٧١ م -
- ٤٥- محمد عبدالرحيم غنيمه، تاريخ الجامعات الكبرى، المغرب ١٩٣٥ م، ص: ١٨٠-١٨١.
- ٤٦- نفس المصدر: ص: ١٨١-١٨٢.
- ٤٧- نفس المصدر: ص: ١٨٢ وبعدها. الرواية أساسها على الحفظ، والدراية أساسها على الفهم ولقد أعطى رجال التعليم الإسلامى "الفهم" أهمية بالغة، فقسّموا العلم الى هذين النوعين (تاريخ الجامعات ص: ١٩٧-١٩٨).
- ٤٨- ياسين خليل، التراث العلمي الغربى، بغداد ١٩٧٨ م، ٧٥/١.
- ٤٩- تاريخ التربية الإسلامية، ص : ٣٦٠.
- ٥٠- نفس المصدر: ص: ٣٦٩.